بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاتحة الـكتاب

فاتحة الشيء : أوله وابتداؤه . ولمّا افتُتِح التنزيل الـكريم بها ، إمَّا بتوقيفٍ من النبيّ ﷺ ، أو باجتهادٍ من الصحابة ــ كما حكى القولَيْن القاضى الباقلانىُّ فى ترتيب التنزيل ــ . سُمِّيت بذلك .

قال السيد الجرجانيّ : فاتحة الـكتاب صارت علماً بالغلبة لسورة الحمـد ، وقد يطلق عليها « الفاتحة » وحدها ، فإما أن يكون علماً آخر بالغلبة أيضاً ، لـكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصاراً ، واللام كالعوض عن الإضافة إلى الـكتاب ، مع لمح الوصفية الأصلية .

وقال ابن جرير : سميت « فاتحة الـكتاب » : لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف ، ويقرأ بها فى الصلوات . فهى فواتح لـما يتلوها من سور القرآن فى الـكتابة والقراءة . وتسمَّى « أم القرآن » : لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخُّر ما سواها خلفها فى القراءة والـكتابة تقدُّمَ الأمّ والأصل؛ أو لاشتمالها على مافيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبّد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ؛ أو على جملة معانيه من الحـكم النظرية ، والأحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ، ومنازل الأشقياء . والعرب تسمى كلَّ أمرٍ جامعٍ أموراً ، وكلَّ مقدمٍ له توابع تتبعه « أمًّا » ــ فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ « أمّ الرأس » وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها « أما »

وتسمى « السبع المثانى » ــ جمع مثنى كمَفْعَل اسم مكان ، أو مثنّى بالتشديد من التثنية

على غير قياس ـ لأنها سبع آيات تثنى فى الصلاة أى تكرر فيها .

والأكثرون على أن الفاتحة مكية ، وأنها سبع آيات .

وأصل معنى « السورة » لغةً : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سور المدينة للحائط الذى يحويها ، وذلك لارتفاعه على ما يحويه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعطاكَ سُورةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ(١)

أى منزلةً من منازل الشرف التى قصرت عنها منازل الملوك .

وأما « الآية » فإمَّا بمعنى : العلامة ـ لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها ، كالآية التى تكون دلالة على الشىء يستدلّ به عليه ـ وإمَّا بمعنى : القصَّة ـ كما قال كعب ابن زهير :

ألا أَبْلِغا هـذا المعرِّضَ آيةً : ... أَيقظانَ قالَ القولَ ، إذ قال ، أم حَلَمْ

أى رسالة منى ، وخبراً عنى ـ فيكون معنى الآيات « القصص » قصة تتلو قصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام ابن جرير : إن الله ، تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيه محمداً ﷺ : بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدم إليه فى وصفه بها قبل جميع مهماته ، وجعل ـ ما أدَّبه به من ذلك ، وعلَّمه إياه ـ منه لجميع خلقه : سنَّةً يستنّون بها ، وسبيلًا يتبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ماظهر، من قول القائل : بسم الله، على مابطن من مراده الذى هو محذوف.

(١) قال السيد محمود محمد شاكر فى التعليق على تفسير ابن جرير ما يأتى :

يتذبذب : يضطرب ويحار . والذبذبة: ترددالشىء المعلق فى الهواء يمنة ويسرة . يقول : أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ، ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقا دونها حائرا يضطرب ويتردد ، لا يطيق أن يبلغها .

وذلك أن الباء مقتضية فعلاً يكون لها جالباً ؛ فإذا كان محذوفاً يقدَّر بما جُعلت التسمية مبدأً له . والاسم هنا بمعنى التسمية ـ كالكلام بمعنى التكليم ، والعطاء بمعنى الإعطاء ـ والمعنى : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنى وصفاته المُلَى.

و « الله » علم على ذاته ، تعالى وتقدس . قال ابن عباس : هو الذى يألهه كلّ شىء ويعبده وأصله « إلاه » بمعنى مألوه أى معبود ؛ فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته فى الكلام ؛ وبعد الإدغام فخّمت تعظيماً ـ هذا تحقيق اللغويين .

و « الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » قال الجوهرىّ : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما فى اللغة « نديم وندمان » وهما بمعنى . ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جادّ مجدّ إلاَّ أن « الرحمن » اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ »[1] فعادل به الاسم الذى لايشركه فيه غيره . اه .

وقد ناقش فى كون « الرحمن الرحيم » بمعنى واحد ، العلّامةُ الشيخ محمد عبده المصرىّ فى بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها ـ ثم قال : ـ وأنا لا أجيز لمسلمٍ أن يقول ، فى نفسه أو بلسانه : إن فى القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها فى نفسها ، بل ليس فى القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ؛ ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم باللغة مبنىّ على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً ؛ فصيغة « الرحمن » تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه ، سواء كان جليلاً

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] ونصها : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً ، فهو غير معنيّ ولا مراد ، وقد قارب من قال : إن معنى «الرحمن» المحسن بالإحسان العام . ولكنه أخطأ فى تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ؛ ولعل الذى حمل من قال : إن الثانى مؤكد للأول ـ على قوله هذا ـ هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة ، مع عدم التفطن لما هو أحسن منه . ثم قال : والذى أقول : إن لفظ « رحمن » وصفٌ فعلىٌّ فيه معنى المبالغة ـ كفعّال ـ ويدل فى استعمال اللغة على الصفات العارضة ـ كعطشان وغرثان وغضبان ـ وأما لفظ « رحيم » فإنه يدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس ـ كعليم وحكيم وحليم وجميل ـ والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربىّ البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز وجل التى تعلو عن مماثله صفات المخلوقين ؛ فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ « الرحيم » يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لايستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثانى مؤكّداً للأول . فإذا سمع العربىّ وصف الله جلّ ثناؤه بـ « الرحمن » ، وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا، لايعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ـ لأن الفعل قد ينقطع إذا كان عارضاً لم ينشأ عن صفة لازمة ثابتة ـ فعندما يسمع لفظ « الرحيم » يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى الثناء بالجميل، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر مايعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه . واللام فى « الحمد » للاستغراق أى استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيماً وتمجيداً ـ كما فى الحديث: « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله »[(١)] .

---

(١) لم أعثر على هذا الحديث فى شيء من أصول السُّنة .

قال الإمام ابن القيّم فى « طريق الهجرتين » : الملك والحمد فى حقه تعالى متلازمان . فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود فى ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته . ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لينبّه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده . فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك ، « فتبارك الله » يشمل ذلك كله . ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح . والطرق إلى العلم به فى غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره فى ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الأمر والنهى واسعة جدا ، لأن جميع أسمائه ، تبارك وتعالى ، حمدٌ ، وصفاته حمدٌ ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله فى إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الغاية هى حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله . فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، وسريان حمده فى الموجودات ، وظهورُ آثاره فيه أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر . ـ ثم قال ـ : وبالجملة فكل صفة علياء ، واسم حسن ، وثناء جميل ، وكل حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرامٍ فهو لله عزّ وجلّ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ؛ وجميع ما يوصف به ، ويذكر به ، ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسبحانه وبحمده لا يُحصِى أحدٌ من خلقه ثناءً عليه اهـ .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرب يطلق على السيد المطاع وعلى المصلح وعلى المالك . ـ تقول : رَبَّه يرُبُّه فهو ربّ كما تقول : نمّ عليه ينمّ فهو نمّ ـ فهو صفة مشبهة، ويجوز أن يكون

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

مصدراً بمعنى التربيـة وهى : تبليغ الشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً . وصف به الفاعل مبالغة كما وصف بالعدل . والرب ـ باللام ـ لايقال إلا لله عزّ وجلّ . وهو فى غيره على التقييد بالإضافة ـ كربّ الدار ـ ومنه قوله تعالى: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ»(١) «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ»(٢).

و « الْعَالَمِينَ » جمع عالم وهو : الخلق كلّه وكل صنف منه . وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس . والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

إيرادها عقد وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذى هو أسلوب التنزيل الحكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائىّ بإثبات ألف « مالك » والباقون بحذفها . قال الزمخشرىّ : ورجحت قراءة « ملك » لأنه قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غضاً طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »(٣)

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٠] ونصها : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد . وثمة مرجحات أخرى .

وقال بعضهم : إن قراءة « مالك » أبلغ ، لأن الملك هوالذي يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرّف له بشيء من شؤونهم الخاصة . وتظهر التفرقة في عبدمملوك في مملكة لها سلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . ومن وجوه تفضيلها : إنها تزيد بحرف ، ولقارىء القرآن بكل[1] حرف عشر حسنات ـ كما رواه الترمذيّ عن ابن مسعود بإسناد صحيح ـ وكلاهما صحيح متواتر في السبع .

و « الدِّينِ » الحساب والمجازاة بالأعمال . ومنه : « كما تدين تدان » أي : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وتخصيصه بالإضافة إمّا لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر وفصل القضاء فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال الطبريّ : أي لك ، اللهم ، نخشع ونذلّ ونستكين . إقراراً لك بالربوبية لا لغيرك ـ قال ـ والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمّي الطريقَ المذلل الذي قد وطئته الأقدام، وذلّلته السابلة « معبّدًا » ومنه قيل للبعير المذلل بالركوب في الحوائج « معبّد » ومنه سمي العبد « عبدا » لذلّته لمولاه انتهى .

وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده . أعني : أن لا يشرك شيئاً ما معه ، لا في محبته كمحبته ، ولا في خوفه ، ولا في رجائه ، ولا

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٦ ـ باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول: الٓم حرف ، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

فى التوكل عليه ، ولا فى العمل له ، ولا فى النذر له ، ولا فى الخضوع له ، ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب ، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده . وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذّل بكمال الحب . فلا بد أن يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال الحب ؛ ولا بد أن يكون ذليلاً له كمالَ الذل ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده . فهو الإله المستحق للعبادة ، الذى لا يستحقها إلاَّ هو ، وهى كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلاَّ هو ، تعالى . وقد أشار لذلك تقديم المفعول ، فإن فيه تنبيهاً على ما يجب للعبد من تخصيصه ربَّه بالعبادة ، وإسلامه وجهه لله وحده ، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبىّ ﷺ عليهم ، فقد كانوا متفرقين فى عبادتهم ، متشاكسين فى وجهتهم : منهم من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك ، كما بينه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ »(١) الآية . وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »(٢) . وفى قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ »(٣) الآية . وقوله تعالى : « وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ

---

(١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٤٠ و٤١] ونصها : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ =

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا »[١] الآية . وفى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى »[٢] . وحديث[٣] أبى واقد الليثىّ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول ﷺ : « الله أكبر . إنها السنن ، قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ـ إلى قوله ـ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »[٤] رواه الترمذىّ وصححه.

= لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٠] ونصها : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) [٥٣ / النجم / ١٩ و ٢٠] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم . وهذا نصه :

عن أبى واقد الليثىّ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبىّ ﷺ « سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . والذى نفسى بيده لتركبن سنة من كان قبلكم » .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣٨ ـ ١٤٠] ونصها : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ =

obeikandl.com

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »(١) فروى الإمام أحمد والترمذىّ(٢) عن عدىّ بن حاتم أنه سمع النبىّ ﷺ يقرأ هذه الآية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم ، قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقلت : بلى قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الإيمان إلاّ بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة. أى ركنها المهم الأعظم. وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى »(٣) فسماه عبادة .

= ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال: «ياعدىّ، اطرح عنك هـذا الوثن » . وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وفى الخبر[١] : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » .

قال شمس الدين بن القيم : ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة أن يقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفاً منه ، أو رجاءً له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك ؛ ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره فى ثلاث مواضع من كتابه ؛ وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ، يذل ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ، والمؤثر لا يرضى بإيثاره انتهى .

(فائدة) قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » : فالأول تبرّؤ من الشرك ، والثانى تبرّؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى : « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ »[٢] ، « قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا »[٣] ، « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »[٤] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ٤٠٣ (طبعة الحلبىّ) ونصه :
عن أبى موسى الأشعرىّ قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « أيها الناس . اتقوا هـذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل » فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٦٧ / الملك / ٢٩] ونصها : قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٤) [٧٣ / المزمل / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أى ألهمنا الطريق الهادى ، وأرشدنا إليه ، ووفقنا له .

قال الإمام الراغب فى تفسيره : « الهداية دلالة بلطف . ومنه الهدية ، وهوادى الوحش وهى متقدماتها لكونها هادية لسائرها . وخص ما كان دلالة بفعلت نحو : هديته الطريق ، وما كان من الإعطاء بأفعلت نحو أهديت الهدية ، ولما يصور العروس على وجهين: قيل فيه : هديت وأهديت . فإن قيل : كيف جعلت الهدى دلالة بلطف وقد قال تعالى : «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[1] وقال تعالى: « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ»[2] قيل : إن ذلك حسب استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال:

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لهَا بِخَيْلٍ   تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ ![3]

والهداية هى الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً ، وهى من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثانى إلا بعد الأول ، ولا الثالث إلا بعد الثانى . فأول المنازل إعطاؤه العبد القوى التى بها يهتدى إلى مصالحه إما تسخيراً وإما طوعاً ـ كالمشاعر الخمسة والقوة الفكرية ، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعض خص به الإنسان ، وعلى ذلك دل قوله تعالى : « أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »[4] وقوله تعالى : « الَّذِي قَدَّرَ

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٣] ونصها: مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤] .

(٣) استشهد به الزمخشرى فى الكشاف. وقال شارح الشواهد :

أصل التحية أن يدعى للرجل بالحياة . وضرب وجيع أى موجع . أى رب جيش قد مشيت إليه بجيش . وتحية بينهم الضرب بالسيف لا القول باللسان . والعرب تقول : تحيتك الضرب وعقابك السيف . أى بدلا لك من التحية .

(٤) [٢٠ / طه / ٥٠] ونصها : قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .

obeikandl.com

فَهَدَىٰ »(١) وهذه الهداية إما تسخير وإما تعليم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »(٢) وقوله تعالى « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »(٣) وقال فى الإنسان، بما أعطاه من العقل ، وعرفه من الرشد : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ »(٤) وقال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »(٥) وقال فى ثمود: « فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »(٦) وثانيهما الهداية بالدعاء وبعثة الأنبياء عليهم السلام . وإياها عنى بقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »(٧) . وبقوله : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »(٨) وهذه الهداية تنسب تارةً إلى الله تعالى عز وجل ، وتارة إلى النبيّ عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »(٩)

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٨] ونصها : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ .

(٣) [٩٩ / الزلزلة / ٥] .

(٤) [٧٦ / الإنسان / ٣] ونصها : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا.

(٥) [٩٠ / البلد / ١٠] .

(٦) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(٧) [٣٢ / السجدة / ٢٤] ونصها : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

(٨) [١٣ / الرعد / ٧] ونصها: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

(٩) [١٧ / الإسراء / ٩] ونصها : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وثالثها هداية يوليها صالحى عباده بما اكتسبوه من الخيرات ، وهى الهداية المذكورة فى قوله عز وجل : « وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ »(١) . وقوله : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(٢) وقوله : « وَالَّذِين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »(٣) . وهذه الهداية هى المعنيّة بقوله : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »(٤) . ويصح أن ننسب هذه الهداية إلى الله عز وجل فيقال : هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب فى وصولهم إليها . ويصح أن يقال : اكتسبوها من حيث أنهم توصلوا إليها باجتهادهم . فمن قصد سلطاناً مسترفدا فأعطاه ، يصح أن يقال : إن السلطان خوّله . ويصح أن يقال : فلان اكتسب بسعيه ، ولانطواء ذلك على الأمرين ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »(٥) وقال: « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »(٦) . فنبه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً .

وهذه الهداية يصح أن يقال : هى مباحة للعقلاء كلهم ، ويصح أن يقال : هى محظورة

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] ونصها : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٥٧/ الحديد/ ٢٨] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٤٧ / محمد / ١٧] .

(٦) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إلّا على أوليائه ، لما كان في إمكان جميع العقلاء أن يترشحوا لتناولها . ومن ذلك قيل : إنها لا يسهل تناولها قبل أن يتشكل الإنسان بشكل مخصوص ، بتقديم عبادات . وقد قال بعض المحققين : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلّا البصير ، ولا يعمل به إلّا اليسير . ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرها ولا يهتدى بها إلا العلماء . وقال بعض الأولياء : إن مثل هداية الله مع الناس كمثل سيلٍ مرّ على قِلاتٍ[1] وغدران[2] ، فيتناول كلُّ قلتٍ منها بقدر سعته – ثم تلا قوله – « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا »[3] وقال بعضهم : هي كمطرٍ أتى على أرضين فينتفع كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع به .

(والمنزلة الرابعة) من الهداية التمكين من مجاورته في دار الخلد ، وإياها عنى الله بقوله « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا »[4] . فإذا ثبت ذلك فمن الهداية مالا ينفى عن أحد بوجه . ومنها ما ينفى

---

(١) في المصباح : القَلْت نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . والجمع قِلات ، مثل سهم وسهام .

(٢) الغدران جمع غدير ، وهو النهر .

(٣) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

obeikandi.com

عن بعض ويثبت لبعض ، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيّه ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »(١) . وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »(٢) . وقال: « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ »(٣) . فإنَّه عنى الهداية ـ التي هي التوفيق وإدخال الجنة ـ دون التي هي الدعاء لقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٤) . وقال في الأنبياء : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »(٥) . فقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فسّر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة : (الأول) أنه عنى الهداية العامة ، وأمر أن ندعو بذلك ـ وإن كان هو قد فعله لا محالة ـ ليزيدنا ثواباً بالدعاء ، كما أمرنا أن نقول : اللهم صلِّ على محمد . (الثاني) قيــل : وفقنا لطريقة الشرع . (الثالث) احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات ، واعصمنا من الشبهات .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٥٦] ونصها: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٣) [٣٠/ الروم/ ٥٣] ونصها : وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٧٣] ونصها : وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

(الرابع) زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(١) . وقولك : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زِدْنَاهُمْ هُدًى »(٢) . (الخامس) قيل : علمنا العلم الحقيقي فذلك سبب الخلاص، وهو المعبّر عنه بالنور في قوله : « يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ »(٣) (السادس) قيل : هو سؤال الجنة ، لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ »(٤) . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ »(٥) الآية . فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها ، والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية ـ إذ لا تنافي بينها ـ

(١) [٦٤ / التغابن / ١١] ونصها : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٧ / محمد / ١٧] ونصها : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٥] ونصها : اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٧ / محمد / ٤ و ٥] ونصهما : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ☆ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

(٥) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وبالله التوفيق » اهـ كلام الراغب . وبه يعلم تحقيق معنى الهداية فى سائر مواقعها فى التنزيل الكريم ، وأن الوجوه المأثورة فى آيةٍ ما ـ إذا لم تتناف ـ صح إرادتها كلها ؛ ومثل هذا يسمى : اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ .

كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فى مبحث له مهم ، نأثره عنه هنا ، لما فيه من الفوائد الجليلة . قال رحمه الله :

ينبغى أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين : أحدهما ليس فيه تضادّ وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقا ، وإنما هو اختلاف تنوّع أو اختلاف فى الصفات أو العبارات . وعامة الاختلاف الثابت عن مفسرى السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . فإن الله سبحانه إذا ذكر فى القرآن اسماً مثل قوله « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فكل من المفسرين يعبّر عن الصراط المستقيم بعبارة تدلّ بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق بمنزلة ما يُسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته . فيقول بعضهم : الصراط المستقيم كتاب الله أو اتباع كتاب الله . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنّة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب ، وامتثال المأمور ، واجتناب المحظور ؛ أو متابعة الكتاب والسنّة ؛ أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات . ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته ؛ وكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه . ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التمثيل لا على سبيل الحدّ والحصر ـ مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له إلى رغيف ـ وليس المقصود مجرد عينه ، وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص تمثيلاً . وهذا كما إذا سئلوا عن قوله « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ »(١). أو عن قوله « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »(٢). أو عن الصالحين أو الظالمين ، ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التى قد يتعسّر أو يتعذّر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه ، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه ، وقد يستدلّ به على نظائره : فإن الظالم لنفسه هو تارك المأمور فاعل المحظور . والمقتصد هو فاعل الواجب وتارك المحرّم . والسابق هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه . فيقول المجيب بحسب حاجة السائل : الظالم الذى يفوّت الصلاة ، أو الذى لا يسبغ الوضوء ، أو الذى لا يتمّ الأركان ونحو ذلك . والمقتصد الذى يصلى فى الوقت ـ كما أمر ـ والسابق بالخيرات الذى يصلى الصلاة بواجباتها ومستحباتها ويأتى بالنوافل المستحبة معها . وكذلك يقول مثل هذا فى الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلّا الله ، فمن ادعى علمه فهو كاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه كما أخذوا عنه السنة . وإن كان من الناس من غيّر السنة ، فمن الناس من غير بعض معانى القرآن ـ إذ لم يتمكن من تغيير لفظه . وأيضاً فقد يخفى على بعض العلماء بعض معانى القرآن ، كما خفى عليه بعض السنة ، فيقع خطأ المجتهدين من هذا الباب والله أعلم .

وتقدم فى مقدمة الكتاب بسط لهذا البحث فارجع إليه . (انظر : ج ١ ص ١٧)

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ونصها : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً فى تحقيق هذه الآية :

« كل عبدٍ مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم . فإنه لا نجاة من العذاب إلّا بهذه الهداية ، ولا وصول إلى السعادة إلّا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو : إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين ؛ وهذا الاهتداء لا يحصل إلّا بهدى الله « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »(١) . فإن الصراط المستقيم : أن تفعل فى كل وقت ما أمرت به فى ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نهيت عنه . وهذا يحتاج فى كل وقت إلى أن تعلم : ما أمر به فى ذلك الوقت ، وما نهى عنه ؛ وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور ؛ وكراهة لترك المحظور . والصراط المستقيم قد فسّر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته ؛ بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإن انقطع رزقه مات ـ والموت لا بدّ منه ـ فإن كان من أهل الهداية ، كان سعيداً بعد الموت ، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة فى حقه . وكذلك النصر ـ إذا قدّر أنه قُهر وغُلب حتى قتل ـ فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر ، بل لا نسبة بينهما ، فلهذا كان هذا الدعاء مفروضاً عليهم فى الصلوات ـ فرضها ونفلها ـ وأيضاً فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر : لأنه إذا هدى الصراط المستقيم كان من المتقين « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »(٢) وكان من المتوكلين «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) [١٨ / الكهف / ١٧] ونصها : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللهِ ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢، ٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ =

اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » (١) ، وكان ممن ينصره الله ورسوله ومن ينصر الله ينصره (٢) وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون (٣) . فالهدى التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر . فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب يحصل به كل منفعة ، وتندفع به كل مضرة .

(فائدة) الصراط المستقيم أصله الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة . فالطريق الواضح للحس ، كالحق للعقل ، فى أنه : إذا سير بهما أبلغا السالك النهاية الحسنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

أى : بطاعتك وعبادتك، وهم المذكورون فى قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » (٤) .

= أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...

(١) [٦٥/ الطلاق/ ٣] ونصها : وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٢) يشير إلى قوله تعالى [٤٧ / محمد / ٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى [٣٧ / الصافات / ١٧٣] وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

(٤) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا .

« غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ » قال الأصفهانى : وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين فى إنعام كثير عليهم ، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة ، بل ذلك نعمة خاصة . ثم إن المراد بالمغضوب عليهم والضالين : كلّ من حاد عن جادة الإسلام من أىّ فرقة ونحلة . وتعيين بعض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفراده وأشهرها ، وهذا هو المراد بقول ابن أبى حاتم : لا أعلم بين المفسرين اختلافاً فى أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى .

(فوائد) الأولى : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها : « آمين » ومعناه : اللهم استجب ، أو كذلك فليكن ، أو كذلك فافعل . وليس من القرآن . بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف . والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذىّ[1] عن وائل بن حُجر قال : سمعت النبىّ ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال : « آمين » مدّ بها صوته » . ولأبى داود : رفع بها صوته . قال الترمذىّ : هذا حديث حسن ، وفى الباب عن علىّ وأبى هريرة ، وروى عن علىّ وابن مسعود وغيرهم .

وعن أبى هريرة قال[2] : كان رسول الله ﷺ إذا تلا « غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ » قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول » . رواه أبو داود .

وفى الصحيحين[3] عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمّن

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٧٠ ـ باب ما جاء فى التأمين .
وأبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٨ ـ باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٢ .
والإمام أحمد فى مسنده فى : ج ٤ ص ٣١٦ (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٨ ـ باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٤ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١١١ ـ باب جهر الإمام بالتأمين .
ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٧٢ .

الإمام فأمِّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وفى صحيح مسلم[1] عن أبى موسى مرفوعا : « إذا قال ـ يعنى الإمام ـ ولا الضالين فقولوا : آمين ، يجبكم الله » .

الثانية : فى ذكر ما اشتملت عليه هذه السورة من العلوم :

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت ـ وهى سبع آيات ـ على حمد الله تعالى ، وتمجيده ، والثناء عليه : بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرُّع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ـ وهو الدين القويم ـ وتثبيتهم عليه حتى يُفْضِىَ بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين .

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون .

قال العلامة الشيخ محمد عبده فى تفسيره :

الفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم : إن أسرار

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٦٢ ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ قال : إن رسول الله ﷺ خطبنا فبيّن لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا ، فقال « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم ليؤمكم أحدكم . فإذا كبر فكبروا . وإذا قال : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقولوا : آمين . يجبكم الله . فإذا كبر وركع فكبروا واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم ويرفع قبلكم » .

القرآن فى الفاتحة ، وأسرار الفاتحة فى البسملة ، وأسرار البسملة فى الباء ، وأسرار الباء فى نقطتها ! فإن هذا لم يثبت عن النبيّ ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ، ولا هو معقول فى نفسه . وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلوّ إلى إعدام القرآن خاصته ، وهى البيان . ـ قال ـ : وبيان ماأريد : أن مانزل القرآن لأجله أمور :

أحدها التوحيد : لأن الناس كانوا كلهم وثنيين ـ وإن كان بعضهم يدّعى التوحيد ـ

ثانيها وعد من أخذ به ، وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به ، وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد ، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعيد ـ كذلك ـ يشمل نقمهما وشقاءهما . فقد وعد الله المؤمنين : بالاستخلاف فى الأرض ، والعزّة ، والسلطان ، والسيادة . وأوعد المخالفين : بالخزى والشقاء فى الدنيا . كما وعد فى الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم .

ثالثها العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس .

رابعها بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة .

خامسها قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار ، واختيار طريق المحسنين .

هـذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن ، وفيهـا حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية ، والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب .

فأما التوحيد فى قوله « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لأنه ناطق بأن كل حمدٍ وثناء يصدر عن نعمةٍ ما فهو له تعـالى ، ولا يصح ذلك إلّا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية . ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرّح به بقوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . ولفظ « رب » ليس معناه المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية والإنماء . وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان فى

نفسه وفى الآفاق منه عزّ وجلّ . فليس فى الكون متصرف بالإيجاد ، والإشقاء ، والإسعاد سواه . ثم إن التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين . ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الإشارة إليه ، بل استكمله بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم ، وهى اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ، يُدعَون لذلك من دون الله ، ويستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا ، ويتقرب بهم إلى الله زلفى . وجميع ما فى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

« وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوىّ فى « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » فذكرُ الرحمة فى أول الكتاب ، وهى التى وسعت كل شيء . وعدٌ بالإحسان ـ لا سيما وقد كررها مرة ثانية ـ تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا ، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يتضمن الوعد والوعيد معاً ، لأن معنى الدين الخضوع ، أى : إن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لا نزاع فيها ، لاحقيقة ولا ادعاء ؛ وإن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ـ ظاهراً وباطناً ـ يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ؛ وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو : إما ثواب للمحسن ، وإما عقاب للمسيء ، وذلك وعدٌ ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وهو الذى من سلكه فاز ، ومن تنكبه هلك . وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة ، فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى : إنه قد وضع لنا صراطاً سيبيّنه ويحدده . ويكون مناطُ السعادة فى الاستقامة عليه ، والشقاء فى الانحراف عنه . وهذه الاستقامة عليه هى روح العبادة . ويشبه هذا قوله تعالى :

«وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »(١) . فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لهـا . وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله ، وهيبته ، والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء . فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها ، والصيام وأيامه ؛ وكانت هـذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية ، وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلاً ما ؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة . ومخ العبادة الفكر والعبرة ؛ وأما الأخبار والقصص ففى قوله تعالى : «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم ، وصائح يصيح : ألا فانظروا فى الشؤون العامة التى كانوا عليها واعتبروا بها ، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(٢) حيث بيّن أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار . وفى قوله تعالى : « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » تصريح بأن مَن دون المنعم عليهم فريقان : فريق ضل عن صراط الله ؛ وفريق جاحده ، وعاند من يدعو إليه ، فكان محفوفاً بالغضب الإلهى ، والخزى فى هذه الحياة الدنيا . وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يفيد العبرة ، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التى يفصلها

---

(١) [١٠٣ / العصر / ١ـ٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

القرآن تفصيلاً . فـكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى فى الإبداع . وعلى هذا تـكون الفاتحة جديرة بأن تسمى « أم الـكتاب » .

الثالثة : مما صح فى فضلها من الأخبار : ما رواه البخارىّ فى صحيحه عن أبى سعيد ابن المُعَلّى رضى الله عنه قال[١] :

كنت أصلى فى المسجد فدعانى النبىّ ﷺ فلم أجبه . فقلت: يارسول الله إنى كنت أصلى. فقال : ألم يقل الله « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » ؟ ـ ثم قال لى : « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ » ثم أخذ بيدى ، فلما أراد أن نخرج ، قلت : يا رسول الله ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن . قال :

« الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وروى[٢] الامام أحمد والترمذىّ بإسناد حسن صحيح عن أبى هريرة، نحوه، غير أن القصة مع أبىّ بن كعب ، وفى آخره :

« والذى نفسى بيده ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيـل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، إنها السبع المثانى » .

واستدل بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الايات والسور على بعض ، كما هو المحكىّ عن كثير من العلماء منهم: إسحق بن راهويه ، وأبوبكر بن العربىّ وابن الحضار من المالـكية، وذلك بيّن واضح .

وروى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال[٣] :

كنا فى مسيرٍ لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحىّ سليم، وإن نفرنا غيبٌ ،

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الـكتاب .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده فى : ج ٥ ص ١١٤ (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١ ـ باب ماجاء فى فضل فاتحة الـكتاب.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الـكتاب .

فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأْبِنه برُقية . فرقاه ، فبَرَأ ، فأمر له بثلاثين شاةً ، وسقانا لبَناً ؛ فلما رجع قلنا له : أ كنتَ تُحسن رقيةً ، أو كنت ترقِى ؟ قال : لا ، مارقيت إلّا بأم الكتاب . قلنا : لا تُحْدِثوا شيئاً حتى نأتى ، أو نسأل ، النبىَّ ﷺ . فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبىّ ﷺ فقال «وما كان يُدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم ».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود . وفى بعض روايات مسلم : أن أبا سعيد الخدرىّ هو الذى رقى ذلك السليم ـ يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاؤلا ـ .

وروى مسلم والنسائىّ عن ابن عباس قال(١) :

بينما جبريل قاعد عند النبىّ ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك . فقال : هـذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلّم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتَهُمَا نبىّ قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال(٢) « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج (ثلاثاً) غيرُ تمام » فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام. فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى ـ وقال مرّة فوّض إلىّ عبدى ـ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هـذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

ويكفى من شرح الفاتحة هذا المقدار الجليل ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٣٨ .